سقوط زمالة الأمير عبد القادر
وتأثيراتها على الوضع العام في الجزائر 1943-1947

الأستاذ الدكتور محمد بليل، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص:

تسعى هذه الدراسة لتوضيح طبيعة الصراع بين بطل المقاومة الجزائرية الشعبية "الأمير عبد القادر" وفرنسا الاستعمارية من خلال جيوشها الغازية ، التي استخدمت جميع الوسائل لإخضاع القبائل الجزائرية والتنكر لتعهداتها للداي حسين وكذا معاهداتها مع الأمير عبد القادر .

وكان مجيء الماريشال بيجو Bugeaud لسدة الحكومة العامة في الجزائر ، تأثيرا مباشرا على المقاومة الجزائرية من خلال تتبعه لمقاومة الأمير وارتكاب أعمال فضيعة في حق الجزائريين ، وتمكن خلفه الدوق "دومال" من اكتشاف عاصمة الأمير المتنقلة بمنطقة طاجين ، حيث أدت هذه العملية إلى ترجيح كفة القادة العسكريين والتوسع على حساب دولة الأمير ، التي عاشت أيامها الأخيرة ، ليجد الأمير عبد القادر ، نفسه مرغما لإيقاف القتال ،بسبب تغير موازين القوى لصالح العسكريين الفرنسيين الذين طبقوا سياسة الأرض المحروقة والسيف لإرغام الجزائريين على الخضوع لهم .

Prince Abdelkader Zmala Fall
and its impact on the general situation in Algeria, 1943-1947

Abstract: This study seeks to clarify the nature of the conflict between the hero of the Algerian resistance "prince Abdul Qader " and the French colonialism with its invading armies, which used all the means to subdue the Algerian tribes and disguised their commitments with the Day Hussein as well as her treaties with prince Abdul Qader . The coming of the Marshal Bugeaud to the Algerian general government had a direct impact on the Algerian resistance by tracking the resistance of the prince and committing atrocious acts against the Algerians. Following him, the duke Daumal managed to discover the prince's shifting capital in Taguin. This operation led to the advancement and extension of the military commanders at the expense of the state of the prince that lived its last days. For the prince to find himself obliged to stop the fighting, because of the change in the balance of power in favour of the French military who applied the scorched land policy and used the sword to force the Algerians to submit to them .

مقدمة

إن المقدمة التي وضعها الأستاذ سعد الله في ترجمته لكتاب هنري تشرشل ، حول حياة الأمير عبد القادر[1] تعكس لنا شخصية الأمير كقائد دولة سياسي ورجل عسكري وديني في نفس الوقت ، اجتمعت هذه الصفات في مؤسس أول دولة جزائرية حديثة ، اعتمدت على الجزائريين في تسيير دواليب الدولة والجيش ، وتمكن من فرض وجوده على الفرنسيين الذين تفاوضوا معه خلال معاهدتين :الأولى سميت بديميشيل نسبة إلى القائد الفرنسي الذي تفاوض معه سنة يوم 26 فبراير1834والثاية سميت "بالتافنة" نسبة للوادي الذي تم فيه اللقاء بين ممثلين عن بوجو والأمير عبد القادر يوم 20 مايو 1837 ،أكدتا اعتراف فرنسا بسيادة الأمير على معظم أجزاء الجزائر. ولم يستطع الفرنسيون إلزام الأمير ،الاعتراف بسيادتهم على الجزائر ،سوى المناطق المحتلة وإقامة التمثيل الدبلوماسي يبينهما رغم استمرار الحرب ،ولكن الظروف السياسية والعسكرية ؛ م تعد في صالح الأمير بعد وصول الماريشال "بيجو" إلى مرتبة حاكم عام للجزائر في فبراير 1841 ، الذي تبنى سياسة الأرض المحروقة وكلف أبرز قادته العسكريين بالقضاء النهائي على مقاومة الأمير أمثال "لامورسيار" وابن الملك الدوق دومال ، مما أدى بالأمير عبد القادر إلى تبني استراتيجية المواجهة المتنقلة لسياسة التوسع الاستعماري من خلا عاصمة متنقلة سميت بالزمالة ، حيث كان سقوطها بتاريخ 16 مايو 1943 ،بداية لانهيار دولة الأمير وفرض السيطرة الفرنسية على الجزائر بالقوة القاهرة واستخدام أساليب التفرقة بين الأمير والقبائل الجزائرية ،مما انعكس سلبا على الجزائريين داخليا وخارجيا .

لذلك ،تطرح أمامنا إشكالية كبرى ، فيما ذا تمثلت أهمية عاصمة الأمير عبد القدر الجزائري المتنقلة وأسباب اختيارها والدور الذي أدته في تسيير الدولة الجزائرية ،أيام محنتها خلال تساقط عواصم الأمير مابين 1835-1843 وما نجم عنه من توسع الفرنسيين على حساب دولة الأمير ؟ ، وما هي العوامل التي ساعدت الفرنسيين على اكتشاف هذه العاصمة المتنقلة والنتائج المترتبة عن ذلك داخليا وخارجيا ؟

ذلك ما سوف نحاول الإجابة عنه وتحليله ضمن هذا البحث بالاعتماد على وثائق الأرشيف الاستعماري ومصادر أخرى كمصدر حياة ألأمير عبد القادر لهنري تشرشل ومذكرة ابنه مُحَمَّد وكذا دراسات لباحثين جزائريين.

1 – ظروف نشأة "الزمالة" وأهميتها الاستراتيجية في مواجهة سياسة التوسع الاستعماري

قاوم الأمير عبد القادر الفرنسيين مدة خمسة عشر عاما ، وتمكن من خلالها بناء دولة حديثة بمختلف مقوماتها وذلك نظرا لطموحه في فرض إرادته على القبائل الجزائرية وبناء نظام عربي إسلامي وفق قوانين الشريعة لإسلامية بعد ما تمت مبايعته بالإشراف على شؤون المسلمين من جميع قبائل الجهة الغربية [2] ، وكذا حسب التقارير الفرنسية نفسها

التي كانت تتابع تحركات الأمير ،اطلعت على التنظيم الإداري والعسكري لدولة الأمير معترفة بانضباط قواته ومهارة محاربيه[3] ،وقامت بمتابعة قواته أينما ارتحل .

استفاد الأمير من الوسائل الحديثة التي اطلع عليها عن طريق الأوربيين(فرنسيين وبريطانيين...) وكذا إصلاحات السلطان العثماني في بناء العواصم وتنظيم الجيش وتقسيم الجزائر إلى ثمانية مقاطعات ، ووضع عليها خلفاء عنه ،واستطاع فرض سيطرته على العديد من مناطق الجزائر في الاقليم الغربي وبالوسط وبلاد القبائل وكذا بالإقليم الجنوب من بسكرة مرورا بالأغواط إلى أولاد سيدي الشيخ الذين اعترفوا بسلطته الروحية[4] .

لكن القيادة الفرنسية ممثلة في ضباطها العسكريين وحاكمها العام بيجو ، الذي وصل إلى رأس الحكومة العامة في الجزائر ،بتاريخ فبراير 1841 ،تنكروا لوعودهم التي قطعوها خلال عقدهم لاتفاقية التافنة سنة 1837 ، ليتجدد القتال بينه وبين الفرنسيين ،بسب قيام الفرنسيين بالتوجه نحو الشرق وعدم استئذانهم له بذلك ،ورغم الرسائل التي أرسلها ألأمير إلى القائد العسكري "فالي" Valléيستوضح فيها هذا الموضوع ،واضطراره إلى مراسلة الملك حسب ما ورد عند تشرشل [5] ، إلاّ أن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل وقيام الفرنسيين بمتابعة الأمير وتحطيم مراكزه وعواصمه في الغرب ومباغتة عماله في الشرق ، فأعلن الأمير منذ سنة 1839 الحرب من جديد ، إلاّ أن الظروف الداخلية والدولية كانت لصالح الاحتلال الشامل للفرنسيين ، هذه الاستراتيجية التي تبنتها فرنسا من جديد للقضاء على مقاومة الأمير وذلك بنزع أخر عاصمة له في تاقدمت بتيارت سنة 1843 .

إن هذه الظروف السياسية والعسكرية المستجدة دفعت الأمير إلى تغيير الاستراتيجية وتبني الحرب الخاطفة ومهاجمة القوات الفرنسية أينما وجدت من خلال العديد من رسائل ألأمير عبد القادر إلى القادة العسكريين الفرنسين ، خاصة المرسلة ل"بوجو "Bugeaudالحاكم العام يبلغه ، بنيته في ذلك نظرا لأن فرنسا لم تحترم المعاهدات التي وقعت بينه وبين بيجو ،محذرا إياه من خطر هذه العملية من خلال عدة رسائل منها :"ما الذي دفع فرنسا التي تقول عن نفسها إنها أمة قوية ومسالمة أن تأتي إلى بلادنا وتعلن الحرب علينا ؟..وأنت أيها الحاكم العام أي ضرر تستطيع أن تنزله بنا ؟أنك في المعارك تخسر من الرجال ،مثلما نخسر وجيشك ينقص سنويا بالأمراض ، فأي تعويض تظن أنك تستطيع تقديمه إلى ملكك وبلادك مقابل خسائرك الضخمة في الرجال والأموال ؟ إنه لا يعدو قطعة من الأرض وأحجار مدينة معسكر ....أنك تحرق وتتلف حرثنا وتنهب مخازن حبوبنا ...إن الأراضي التي تأخذها منا ليست سوى قطرة ماء أخذت من البحر وسنحاربك عندما نرى أن ذلك مناسبا ، إنك تعلم أننا لسنا جبناء... "[6] .

إننا نستشف عبقرية الأمير عبد القادر في الرد على حماقات فرنسا وقادتها العسكريين متتبعا استراتيجية عسكرية إلى جانب العمل الدبلوماسي من أجل الحصول على

مكاسب سياسية وتبني كذلك أساليب عديدة في مواجهة الأوضاع الخطيرة المتمثلة في احتلال أخر عواصمه الثابتة المتمثلة في "تاقدمت" مثلما ذكرنا سابقا، حيث تفاجأ الفرنسيون بإنشاء الزمالة العاصمة المتنقلة التي باتت تشبه الشبح بالنسبة لهم، لنستفسر عن أسباب وظروف إنشائها وما هي الغايات التي كان يهدف الأمير من خلالها إلى تبني استراتيجية العاصمة المتنقلة ؟

بعدما قامت الجيوش الفرنسية بقياد بيجو ولامورسيار وشانقارنييه Changarnier وبيدو Bedeau وغيرهم إلى الهجوم على معظم المناطق التي كان يستقر بها الأمير ،اهتدى إلى فكرة إعادة تنظيم جيشه وإدارته ووضع لبنة عاصمة متنقلة تجمع خيرة أنصاره والقبائل المؤيدة له والبحث عن أماكن أمنة في المناطق الداخلية والصحراء، ذلك أن " أن كل مراكزه الثابتة تعرضت للغزو والتخريب، كما أن القطنة مسقط رأسه قد هوجمت وخربت وأصبح أعضاء أسرته الخاصة منبوذين ...لذلك اضطره واجب الدين والإنسانية أن يواجه بسرعة امتحانا عسيرا وطارئا، فقد قرر أن يبعد عن مسرح كل أولئك الذين لا يمكنه التخلي عنهم والذين لا يستطيع عند الحاجة أن ينقذهم . و هكذا أنشا الزمالة "[7].

وبالتالي فإن ظروف الحرب الجديدة التي فرضها "بيجو" على الأمير ،تطلب منه وضع لبنات هذه العاصمة الجديدة والتي وصفتها العديد من المصادر بمختلف الصفات والأشكال منها: "أن هذه المنظمة الجديدة الفريدة كانت عبارة مجمع من المنازل الخاصة .لقد كان العرب يرسلون إلى الزمالة باعتبارها مأمنا وملجأ مشتركا لأشيائهم الثمينة وقطعان ماشيتهم، ونسائهم وأطفالهم، وشيوخهم وعجزتهم وبذلك أصبحت الزمالة عبارة عن عاصمة ضخمة متنقلة تقدر بأكثر من 20000نسمة ،كانت تتبع تحركات عبد القادر سواء في تقدمه نحو المناطق المتمدنة أو في تراجعه نحو الصحراء حسب حظوظه في النجاح أو الفشل [8] " .

ويؤكد لنا ابنه مُحَمَّد دوافع نشأة الزمالة وأهميتها بالنسبة لدولة ألأمير في المجال الاستراتيجي والحربي موضحا ما يلي[9]:"ثمّ أن الأمير لما رئِى من العدو قد استولى على المدن و القلاع، ظهر له أن يتخذ عاصمة كبيرة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب أثيرة، فباشر في ترتيبها وفي أقرب مدة ظهرت للوجود على أحسن ألأساليب وأجمل ترتيب وسمي ما يخصه منها بالزمالة وما يخص الأعيان والعامة بالدائرة وما يخص الجند بالمحلة واتخذ فيها جملة مضارب لمعامل السلاح وأخرى لوضع المهمات الحربية ومنها الذخائر ...وكان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كونها مدينة حافلة ذات قصور وأبنية جليلة ..."

وقد وصفت العديد من الدراسات هذه العاصمة المتنقلة استقرارها في غالب الأحيان بمنطقة عين طاقين قبل اكتشافها من قبل الفرنسيين."

وتعود أهمية هذه المنطقة لكونها بعيدة عن أعين قادة الاحتلال ولظروفها الطبيعية والتاريخية ،وإذا أردنا معرفة لماذا أختار الأمير طاجين ؟ فإننا نقول شكلت اختيارا استراتيجي بسبب توفر عدة عوامل منها[10] :

- "اختياره لتضاريسها الطبيعية وبعدها عن منطقة المراقبة بوغار.

- انتماء أولاد شعيب والمقان واولاد الشيخ والغرايس تاريخيا إلى بطن واحد مع الأمير ..."

وترجع مكانة طاقين حسب نفس الكاتب إلى كونها تقع في قلب الأمير لكونها أحد معقل أجداده ،وذكر أن أولاد أشعيب المنتمين لقصر بوعلام ،هم في الحقيقة ينتسبون قديما وحديثا لنسب البرجية على نسل مولاي عبد القوى أحد أجداد الأمير' رغم أن القادة العسكريين الفرنسيين ،كانوا يعتقدون أن منطقة "طاقين" بولاية الجلفة حاليا هي أرض قاحلة ،ولكن ترجع أهميتها لأنها تقع في طريق المدية والأغواط حيث كان مطمعا للعسكريين الفرنسيين للتوسع بالصحراء الجزائرية[11].

ومن هذا المنطلق كانت مهمة الماريشال بيجو وقادته العسكريين ، التوجس والبحث عن هذه العاصمة لأهميتها السياسة والاستراتيجية ، وكلف العديد منهم للبحث عنها منذ توليته على رأس الحكومة العامة وذلك بهدف إخضاع قبائل التل والونشريس والصحراء ، قبل معرفة أماكن تواجد هذه الزمالة المتنقلة التي استقرت ذات ربيع 1843 بمنطقة "طاقين" على طريق "لمدية" و"بوغارى" والتوسط ما بين "ثنية الحد" و"حد السحاري " ، وبالتالي كانت مهمة البحث عن الزمالة مهمة سرية لدى قادة الجيش الفرنسي ؛ حسب إحدى الوثائق التي اطلعنا عليها بمكتبة مركز أرشيف فيما وراء البحار بإكس بروفانس ، حيث أشارت إلى قصة اكتشاف زمالة الأمير والهجوم عليها[12] ، وكذا مخطوط عبارة عن تقارير لضباط المكاتب العربية بالمصلحة التاريخية للجيش البري الفرنسي بفنسان ، تناولت تفاصيل متابعة دوماس Daumasمدير مكتب الشؤون العربية لدى القيادة العسكرية الفرنسية بالجزائر ، موضحا في تقريره أهمية عاصمة الأمير الزمالة ومكوناتها ومهامها الإدارية والعسكرية[13].

توضح لنا هذه الوثائق كيفية اكتشاف الزمالة وسقوطها في يد الفرنسيين[14] ، وتطرقت العديد من المصادر لدورها كعاصمة أخيرة للأمير في مقاومته للفرنسيين [15] ؛ حيث جمع فيها خيرة مناصريه وجنوده الأوفياء ،حيث ظلت بعيدة عن أعين الجيش الفرنسي لمدة معينة ، وهي تتحرك من الجنوب نحو الشمال ، وكان الأمير يضطر أحيانا إلى تركها وحدها بحراسة بعض جنوده ،مطمئنا للقبائل الموجودة فيها ،ولكن الاستعلامات الفرنسية تمكنت من اختراق بعض القبائل بالتهديد والوعيد والإغراء ،نجم عنه خيانة بعضهم وكشفها للعدو ،الذي سارع بمختلف قواته العسكرية لمحاصرتها ، وقبل التطرق لهذا الموضوع ، سوف نحاول أن نعرف دورها العسكري ومهامها الاقتصادية وتركيباتها الاجتماعية .

2 – دور الزمالة السياسيي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي

إن ملاحقة بيجو المستمرة ضد قلاع ومدن الأمير ، أدت به إلى الاهتداء بفكرة العاصمة المتنقلة ، حيث استمر في القتال ومباغتة الجيوش الفرنسية وجمع القبائل حوله ، وحثهم على الجهاد الدائم من أجل التصدي لقوات الجيش الفرنسي المتوسعة على حساب مناطقه ،وجعل منها العاصمة السياسية التي ترمز للدولة الجزائرية بمختلف مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية ، الاقتصادية ، الاجتماعية والثقافية .

فمن الناحية السياسية والإدارية ، أضحت هذه العصمة تتكون من عدد كبير من الساكنة المتنقلين ما بين العشرين ألف أو مائة ألف نسمة ،حسب شهادات العديد من المعاصرين[16] .وشهادة الأمير نفسه من خلال تقارير الضباط الفرنسيين التي نقلت عن الأمير طبيعة التنظيم الإداري والعسكري لهذه العاصمة[17] .

فتشرشل وصف نظامها السياسي والإداري في ما يلي :"وعندما تكون الزمالة في الصحراء تختفي الخيام في الأفق البعيد أما عندما تكون في التل فإنها ، تملأ السهل وتغطي منحدرات الجبال . وكانت الزمالة منظمة حسب ترتيب عسكري محكم فالدوائر التي كان خيامها تختلف عددا بناء على قوة كل منها كانت موزعة على أربعة مخيمات كبيرة وكل دائرة تعرف مكانها وكل رئيس له مركز معروف ووظيفة معينة طبقا لمكانته أو الثقة التي يوحي بها "[18] ،بينما ابنه مُحَمَّد أشاد بالتنظيم المحكم لهذه العاصمة من خلال ترتيبها وبنائها وانضباط سكانها من القبائل[19].

وكانت تسكن هذه العاصمة العديد من القبائل الموالية له من الغرب الوهراني ، كالحشم الشراقة والغرابة والبرجية وفليتة ومجاهر وكذا قبائل الصحراء ، أمثال قبيلة أولاد شعيب وأولاد نايل وغيرها ؛مثلما نقل لنا أحد الباحثين في الموضوع ، أن هذه العاصمة كانت تسير وفق خطط سليمة ومنظمة حيث كانت تظم ما يقارب عن السبعين ألف نسمة[20] .

ولذلك فالزمالة كانت منظمة وتتشكل من فئات اجتماعية عديدة انصهرت تحت لواء الأمير عبد القادر من أجل الدفاع عن شرف أبنائها والدفاع عن الوطن الذي قام الأمير بإعادة إحيائه وتوعية الجزائريين بضرورة الدفاع عنه رغم المصاعب ، التي حالت دون تحقيق هذه الفكرة ،بسبب التحديات الكبيرة التي واجهت الأمير .

حيث أشار تقرير فرنسي ،نشر مباشرة بعد سقوط الزمالة بأنها كانت تظم 368 دوارا(منطقة سكانية) منظما كالأتي[21] :

"- خمسة دواوير تكون الدائرة الأولى الخاصة بالأمير وأهله

- عشرة دواوير تشكل الدائرة الثانية ممثلة في عائلة خليفة بن علال والجنود المشاة وأبرز القادة العسكريين

- الدائرة الثالثة تتكون 146 دوار من قبيلتي بني هاشم (الحشم) الشراقة والغرابة ، - الدائرة الرابعة تتكون من سبعة قبائل من الصحراء لها مهام عديدة كالسقي والرعي وخدمة الجيش".

مما يجعلنا نستخلص مما نقلناه من المصادر الخاصة بالموضوع ،بأن هذه العاصمة المتنقلة التي حطت الرحال بطاقين(المنطقة الواقعة جنوب شرق تيارت على حدود ولاية الجلفة حاليا) الواقعة بين المدن الكبرى للجزائر كالمدية وتيارت والأغواط ، كان لها أدوارا اجتماعية واقتصادية حسب ما ورد عند الأمير عبد القادر في تقديمه لمعلومات خاصة بسيرته للدبلوماسي البريطاني تشرشل[22]:"عندما هاجم الدوق دومال الزمالة كان أهلها لا يقلون عن 60000 ألف نسمة ...لقد كانت الزمالة تمتد من طاقين إلى جبل عمور ..."وأردف موضحا لتشرشل "أن الزمالة تحتوي على عمال فنيين في الدروع والسروج والخياطة وكل صنعة كانت ضرورية لإقامتها وتنظيمها وكانت تقوم فيها أسواق عظيمة ، يؤمها عرب التل أما عن الحبوب والقمح والشعير فقد كانت تجلب إلينا أو ترسل في جلبها من قبائل الشمال " ويضيف عن تنظيمها العسكري وانضباط سكانها كالأتي :" وكان نظام التعسكر محترما من الجميع ومنظما تنظيما دقيقا ...لقد كان معي ثلاثة مائة أو أربعة مائة جندي نظامي ، إلى جانب الفرسان غير النظاميين من بني هاشم الإغرسيين الذين كانوا مخلصين إلي إخلاصا ..."[23].

إن ما ورد عن تشرشل وابنه مُحَمَّد وأيضا التقرير الذي سجله الدوق دومال لقيادته العسكرية ، تقدم لنا هذه المصادر شهادات عن دراية الأمير عبد القادر بالاستراتجيات السياسة والعسكرية ، إذا استطاع مراوغة الجيوش الفرنسي وترك الماريشال "بيجو "حائرا أمام هذه العاصمة المتنقلة ،التي كانت تختفي من حين لأخر وتظهر في مواقع بعيدة عن الفرنسيين ، أحيانا وتقرب منها أحيانا أخرى ، مما جعل هذه العاصمة من أولوية اهتمامات القيادة العسكرية الفرنسية لاكتشافها وأسر سكانها وقتل قائدها الأمير عبد القادر ، ولكن تجربة الأمير مع سياسة الأرض المحروقة وتدمير القرى والخيام وإفساد المحاصيل الزراعية ، قدمت له تجربة رائعة في تعامل مع هذه الأساليب ،عن طريق التمويه والمخادعة الحربية لإرباك عدوه ، ولكن تشاء الأقدار والظروف أن يتمكن الفرنسيون من اكتشاف هذه العاصمة العجيبة التي وصفها لنا ابنه مُحَمَّد وصفا رائعا ، بأنها كانت ملجأً للقبائل والشرفاء والمناصرين للأمير عبد القادر[24].

وكانت مهمة البحث عن زمالة الأمير عبد القادر ، ذات أهمية بالغة بالنسبة للماريشال بيجو وقادته العسكريين[25] من أجل القضاء على مقاومة الجزائريين .

3– اكتشاف الزمالة وسقوطها

واصل "بيجو" الحاكم العام مطاردة الأمير عبد القادر والقبائل الموالية له من أجل إخضاعها ، وقام بنفسه قيادة الفيالق العسكرية في إقليم الظهرة الشرقي بالونشريس وبناء

مدينة أورنيوفيل(الشلف حاليا)، لقطع الخطوط على قوات الأمير، الذي فقد الكثير من قلاعه، لكنه لا زال يتحرك بقواته من الفرسان والمشاة ووصل إلى غاية المتيجة ومشارف الجزائر وبلاد القبائل، فيحين كانت قوات حاكم وهران تترصد الأمير بمعسكر تارة وبتاقدمت تارة أخرى، ما جعل الفرنسيين يكثفون البحث عنه في كل مكان، وكانت عاصمته المتنقلة هدفا أساسيا لبيجو الذي تبنى سياسة الأرض المحروقة وتدمير كل ما يملكه الجزائريون.

وفق الاستراتيجية التي تبناها الماريشال بيجو، برزت لدى القيادة العسكرية المطاردة للأمير عبد القادر ،أهمية الزمالة: "فأصبحوا يرون فيها الحقيقة لنفوذ عبد القادر وكانوا يؤكدون أنها مخزنا لثروة طائلة، لذلك أصبحت الهدف الأساسي لنشاطهم ،فمن ضباط الجيش إلى عقداء الوحدات العسكرية ،كلهم كانوا حريصين على اكتشاف الغنيمة الضخمة وكانوا يبذلون نشاطا حماسيا للاستيلاء عليها "[26].

يتبين لنا أن القيادة العسكرية الفرنسية في الجزائر ،كانت تحفز جيشها للاستيلاء على أملاك الجزائريين وأرزاقهم وتحطيم ممتلكاتهم، وهي أسليب خسيسة في نظرنا باعتراف قادة الاحتلال أنفسهم، ولهذه الغاية تشكلت ثلاثة فيالق لمتابعة ومراقبة تحركات الأمير بالتعاون مع بعض القبائل الخائنة التي استسلمت لأطماع الاستعمار ووقفت ضد المشروع الوطني للأمير، منها[27] :

- الفيلق الذي قاده بيجو نفسه من الجزائر نحو الظهرة الشرقية مثلما سبق لنا الإشارة إليه
- فيلق أخر بقيادة الدوق دومال ابن الملك بالتوجه نحو إقليم التطري
- فيلق أخر في الغرب الجزائري بمعسكر بقيادة "لامورسيار" لمراقبة الأمير بتاقدمتت في مطلع 1843.

فيحين كان الأمير بدوره قد أقام زمالته ما بين تيارت والمدية واتجه نحة الونشريس لمراقبة الجيش الفرنسي بحوالي 1500 فارس ،وأكد ابنه مُحَمَّد هذه المعلومات حول بداية تحرك الجيوش الفرنسية في البحث عن الزمالة موضحا[28]:" أخذ الفرنسيون يدبرون في نكبتها في وجه مضرتها، ولما ساعدهم الوقت توجه الجنرال لامورسيار بمن معه إلى معسكر ومنها إلى تاكدمت فلقيه الأمير ووقعت بينهما وقائع تكافئوا فيها وتوجه الدوك دومال ابن الملك ومن معه إلى النواحي الشرقية ونظره إلى الزمالة لأنهم علموا أن قوة الأمير قد جعلها فيها، فصارت مطمع أنظارهم ومنتجع أفكارهم ...".

حاولنا نقل هذه المعلومات المتناسقة بما ورد بالتقرير السري الذي رفعه ابن الملك إلى القيادة العسكرية حول البحث عن الزمالة والتعاون فيما بين الفيالق الفرنسية لاكتشافها.

وتتفق جل المصادر المطلع عليها على بداية التوجه نحو الزمالة في مطلع شهر مايو 1843[29] ، بدخول الدوق أومال بمنطقة التطري ووضع حاميات بالمدية وبوغار وكانت تحت قيادته فرق من المشاة للفيلق 33 بقيادة الرائد موني Monet ،موزعة بين قائدين آخرين وهما

الضابط قاردارنس garderens ودوشاسلوب de chasseloup مجهزين بالبنادق ويساعدهم فرقة الزواف من الجزائريين المتعاملين معهم ، إضافة لفرقة الخيالة (الفرسان)وفرقة القناصة بقيادة الضابط موريس Morris رفقة 600 فارس والعقيد يوسف العنابي قائد الصباحية وفرقة أخرى من المدفعية ، وذكر أحد التقارير الذي سبق لن الاستشهاد به ، أن هذه الفرق مجتمعة توجهت جنوبا للبحث عن الزمالة بتاريخ 10 مايو 1843 ، انطلاقا من بوغار محملة بالعتاد والمئونة على ظهر الجمال وبمساعدة بعض القبائل ، منها : أولاد عياد من خلال أغا أحمر بن فراح [30] ، لكنه ورد عند ابنه مُحَمَّد باسم المتنصر عمر العيادي [31]وكذلك قبيلة البوعيش أو البواعش ،مثل ما وردت عند أحد الباحثين الجزائريين [32].

مجمل القول ، أن دومال أعطى الأوامر لقادته العسكريين أمثال شانقرنييه changarnier وآخرين بالاعتماد على أنفسهم لأن فيلق لامورسيار ، لا يمكنه المجيء إلى المنطقة لأنه منشغل بمطاردة الأمير بمعسكر والونشريس ، لذلك توجهت قوات الدوق دومال نحو المنطقة ،حيث استعلمت القوات الفرنسية بأن ألأمير أمضى شتاءه مع زمالته في منطقة كوجيلة ، من قبل متتبعي الآثار(الكشافين).

وصلت القوات الفرنسية لقرية الرشيقية بتاريخ 13 مايو بالقرب من واد بلبودة ،مستخدمة المناورة والتمويه لمغالطة استعلامات الأمير ومحو كل أثر للجيش الفرنسي [33].

وبعد بحث طويل في طريق الصحراء وصلت القوات الفرنسية بتاريخ 14 مايو لمنطقة " كوجيلة" ، تمكن دومال بمساعدة الكشافين العرب وعلى رأسهم ابن العياد بمعرفة مكان تواجد الزمالة بعين طاقين ذات الاستراتيجية الهامة في الربط بين الشمال والجنوب .

وفي هذه الأثناء وردت للجيش الفرنسي ،أن قوات الأمير تتواجد ما بين طاقين وجبل عمور ، حيث قام بغزوات لمنع قبيلة الأحرار من الانضمام للفرنسيين ، عندئذ قسم دومال جيشه إلى فرقتين :أحدهما أساسية متحركة تتكون من المدفعية وسلاح الفرسان (الخيالة)وفرقتين من الزواف مرفقة ب 150 بغل لحمل الأثقال الجنود المرهقين والثانية تتكون من كتيبتين للمشاة و 50 فارس لحماية موكب بقيادة الضابط الفرنسي شاديسون " chadesson ،بهدف التحرك السريع بعيدا عن جميع الاستعلامات للوصل لمنطقة "رأس العين متاع طاقين" مثل ما ورد في التقرير الفرنسي [34].

وبتاريخ 16 ماي ، عرف دومال من قبل مخبريه خاصة أغا ابن عياد أن الزمالة على مقربة منه ،وأبلغه خطورة مهاجمتها لأن بها عدد كبير من السكان والمسلحين ، حيث لم يأبه دومال بذلك وأعطى أوامره للهجوم على الزمالة [35].

وتؤكد جل المصادر المطلع عليها[36] ، عملية اقتحام الزمالة التي كان يوجد فيها أكثر من 20000 ألف نسمة بمختلف دوائرها في غياب الأمير عبد القار وقادته العسكريين ووجود 500 من جنود الزمالة لحمايتها ، رغم أن الأمير قدم رقم 60000 ألف نسمة ولكنه ذكر

بأن الزمالة تمتد في مناطق عديدة والهجوم وقع على الدوائر الأساسية ، حيث تمكنت العديد من القبائل الفرار نحو الصحراء وإنقاذ العديد من سكان الزمالة.

وانتهت المعركة غير المتكافئة بين حراس الزمالة وسكانها وقوات الجيش الفرنسي التي موهت المتواجدين بها بلبسهم للبرانس الحمراء التابعة لجند الأمير ، إضافة لغياب قوات الأمير ،حسب ما ذكر تشرشل عن المعركة موضحا[37] :" ووصل فرسان دومال الزمالة وانتشروا وجاسوا خلال ذلك البحر من الخيام وبسرعة شردوا أهلها الحيارى الخائفين شيوخا وأطفالا و نساءا ...إلاّ أن مناظر الفوضى واليأس التي جرت خلال تلك الفترة القصيرة كالمحاولات الجنونية للهرب ويأس القوم وبؤس المتروك ..."ويؤكد ابنه مُحَمَّد هذه الواقعة الشنيعة بطاكين :"...ثم تكاثرت عليهم جيوش العدو وانتشرت على منازل الزمالة ودائرتها يقتلون وينهبون ويفعلون النعائل الشنيعة التي ينعلها العدو..."[38].

نستشف مما سبق لنا ذكره ، فإن حجم مأساة زمالة الأمير والنكبة التي أصابتها ، كانت فادحة تمثلت في اعتقال أكثر من 3000 شخص وأسر عائلات كبار قادة الأمير باستثناء عائلة الأمير التي تمكنت من الفرار والاستيلاء على قطيع الحيوان من أغنام وخيول وجمال وكذا مخازن الأسلحة والثروة المالية للدولة ألأمير والسطو على ممتلكات السكان من جواهر ونقود وأمتعة وغيرها[39] ، مما يدل على الطابع المادي للحملة الفرنسية على الزمالة مثلما يذكر تشرشل[40]:"وملأ الجنود الفرنسيون أكياسهم بالدولارات والقطع الذهبية الكبيرة وحشدوا جراهم بالجواهر والماس ..."بينما خسائر جيش الاحتلال فكانت محدودة حسب ما ورد في التقرير الفرنسي الخاص بالواقعة تمثلت في:تسعة قتلى من الجنود الفرنسيين و 12 جريح آخر ومقتل 16 حصان وجرح 12 آخر[41].

يدل ذلك في نظرنا على الطابع السلمي لزمالة الأمير التي لم يكن بها عدد كافي من المقاتلين الذين تفاجئوا بحيلة الجيش الفرنسي الذي قام بالتمويه والمخادعة في ارتكاب هذه المجزرة الشنيعة ، حيث لم ينذر السكان أو يطلب منهم الاستسلام ، بل استخدم دومال المخادعة والحيل للإيقاع بزمالة ألأمير ، وهذه الأساليب من وجهة نظرنا تعود لطبيعة جيش الاحتلال الفرنسي الذي قام بارتكاب جرائم عديدة في باقي الجزائر .

4 – انعكاسات وتداعيات سقوط الزمالة على الوضع العام في الجزائر

سقطت زمالة الأمير عبد القادر في يد الفرنسين ، تلك العاصمة المتنقلة التي حيرت الساسة والعسكريين الفرنسيين ، نظرا لنظامها العجيب التي جمعت بين خيامها مؤسسات دولة الأمير من مقرات ومجالس ومواضيع تخزين الأسلحة ومكتبته الضخمة ، وتأكد الفرنسيون من صحة المعلومات الواردة لديهم عندما تمكنوا من بسط نفوذهم على منطقة طاقين وتشتيت القبائل المتواجدة بها ، وكتبوا التقارير عنها[42] ، وبذلك استطاع بيجو" من فرض التواجد الفرنسي على كثير من مناطق الجزائر ، ولكن ذلك لم يمنع الأمير عبد القادر

من إعادة تنظيم ما تبقى من الزمالة اختراق الأفاق ومعاقبة القبائل الخائنة والتصدي لقوات الجيش الفرنسي بمختلف مناطق البلاد .

في هذه الظروف الصعبة واجهت الأمير مشاكل عدة وصعوبات إعادة هيكلة الدولة الجزائرية مثل سابق عهدها ،نظرا للمتغيرات الداخلية والخارجية ،وبالتالي فإن سقوط عاصمته الزمالة انعكس سلبا على المقاومة الشعبية المنظمة ودخلت الجزائر في منعطف آخر ،تمثل في المقاومات غير المنظمة واستمرار الأمير في مقاومته بالوسائل المتاحة لديه. حيث ترتب عنها عدّة نتائج.

أ – داخليا

نتج عن تعرض الزمالة للهجوم المباغت من قبل الدوق دومال ، نتائج جد سلبية ،انعكست سلبا على مناصريه من القبائل وجنده ؛ بسبب النكبات التي أصابت المقاومة في عقر دارها ، أي بالمناطق التي كان يعتقد الأمير أنها في مأمن وبعيدة عن أعين العدو "ففي الوقت الذي كان فيه الأمير بأشد الحاجة إلى أكثر حلفائه كفاءة قضى عليهم القدر القاسي. إنهم لم يستطيعوا أن يتابعوا مهمتهم لأنهم إما وقعوا في الأسر وإما قضوا نحبهم في ميدان الشرف..."[43].

ومن جهة أخرى تفككت أقاليمه الإدارية ، حيث فقدت دولته نظامها واتحادها ، حيث سقطت الظهرة والونشريس وتعرضت القبائل إلى هجمات الجيش الفرنسي وفقد الأمير الاتصال بالكثير من قادته ، وتحولت الحرب إلى الجهة الغربية بالإقليم الوهراني ، حيث سعى الأمير إلى مباغتة العدو ، دون جدوى .

وحسب ذلك ، فإن فرنسا تمكنت من إخضاع قبائل بني عامر وضغطت على بني هاشم وقطعت الإمدادات ما بينه وبين المغرب في الحدود بإخضاعها لقبائل وارسنيس ومنطقة ندرومة وغيرها ، ورغم هذه الأهوال واصل الأمير غزواته ضد القبائل الخائنة ،وأنقذ زمالته الخاصة في أكثر من موقع وتمكن من دخول المغرب الأقصى أكثر من مرة والوصول إلى مناطق تواجد الفرنسيين والصحراء وانتصر على الفرنسيين في أكثر من موقع وردت بالتفصيل عند ابنه مُحَمَّد[44].

نستخلص مما سبق لنا ذكره أن الوضع الداخلي للجزائر ،بات في غير صالح الأمير ونجم عنه تفرق المناصرين وخضوع جل القبائل للفرنسيين واستخدم الماريشال بيجو وخلفه الدوق دومال جميع الوسائل لتحطيم معنويات جيش الأمير وعرضوا عليه الاستسلام ولكنه أبى وظل يقاتل إلى غاية اقتناعه ، بأن الوقت قد حان للانتهاء من القتال والقيام بأدوار إنسانية أخرى ؛ شهد لها العدو قبل الصديق وأن تسليم الأمير للقائد لامورسيار وتوقيف القتال ،جاء نتيجة ظروف دولية لم تكن في صالح مواصلة المعركة ،مثل ما سنأتي إلى تحليل ذلك في العنصر المقبل من هذا البحث .

ب – خارجيا

حاول الأمير عبد القادر، اللعب على الورقة الخارجية بالاتصال بالبريطانيين والاتفاق معهم واستغلال تدهور العلاقات الفرنسية البريطانية ، ولكن الحكومة البريطانية لم ترد عليه ، وحاول مرة أخرى الاتصال بالدولة العثمانية بأنه مستعد للاعتراف بالسلطان العثماني ، شريطة مدة بالمساعدات ، لكن الدولة العثمانية كانت تمر في ظروف سيئة ، بتكالب القوى الأوربية عليها في إطار المسألة الشرقية ؛لذلك لجأ من جديد إلى ملك المغرب لعله يجد عنده الروح الدينية والحماس في توحيد بلدان المغرب ضد فرنسا ، وحاول السلطان المغربي من جهته استغلال ذلك لصالحه ، لكنه تعرض لضغط الحكومة الفرنسية ،رغم طلب الأمير التحالف معه بإخلاص وإخضاع القبائل الجزائرية للملكة الشريفية ، إلا أن انهزام الجيش المغربي في موقعة إيسلي سنة 1844[45] ، أدت بالسلطان المغربي إلى الدخول في صراع من جديد مع الأمير ويطالبه بمغادرة المغرب[46] ، عندئذ أدرك الأمير أن المعادلة الدولية تغيرت لغير صالحه وحاول من جديد إشعال الحرب ضد الفرنسيين ما بين سنتي 1844-1847 ،على أمل وقوف القبائل معه ولكن نظرا للأساليب البشعة التي استخدمها بيجو وخلفائه [47]والمتغيرات الدولية التي أصبحت في صالح فرنسا ،بانشغال بريطانيا وروسيا بمشاكل الشرق الاسلامي وشرق أوربا والصراع حول مناطق النفوذ داخل الدولة العثمانية وبداية التنافس الكبير بين القوى الاستعمارية حول قارتي إفريقيا وأسيا ، استغلت فرنسا ذلك لتوطيد احتلالها في الجزائر وتطبيق سياسات استعمارية في حق الجزائريين .

خاتمة

تتبعنا مراحل تأسيس زمالة الأمير عبد القادر ، التي تمكن من خلالها الصمود لبضعة سنوات أخرى في وجه الاحتلال الفرنسي ، وأضحت هذه العاصمة المتنقلة ، شبحا مخيفا للقادة العسكريين الفرنسيين ولم تفلح محاولات القضاء عليها إلا باستخدام الدسائس والمناورات واستغلال بعض القبائل التي خانت الأمير ووقفت إلى جانب فرنسا . ويمكننا أن نستخلص العديد من النتائج التالية:

- شكلت الزمالة إطارا سياسيا لدولة الأمير للدولة الجزائرية ، التي لم تنهار ، رغم احتلال عواصم الأمير واستطاع إلى حين إنقاذ مناصريه وشكل فيما بينهم إطارا للأمة والشعب الواحد من خلال التحديات المشتركة والعدو المقابل لهم بالدفاع عن التراب الجزائري .
- تمكن الأمير من الصمود لمدة سنين أخرى بعد أن فسخ الفرنسيون اتفاقية التافنة وتنكروا لوعودهم ، حيث واصل الأمير قيادة الجيش ومواجهة سياسة "بيجو" المعتمدة على سياسة الأرض المحروقة.

- تمكنت قوات الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دومال من اكتشاف مكان الزمالة بمنطقة طاقين من خلال خيانة بعض القبائل وتواطئها معهم ،ورغم ذلك صمد الأمير لأربعة سنوات أخرى متحديا قوات بيجو من خلال زمالته الصغيرة ولقن فرنسا دروسا في التضحية والوفاء .
- أنهى الأمير عبد القادر القتال بشرف بالاتفاق مع أبرز أعدائه لامورسيار والدوق دومال ، عندما اقتنع أن القتال أصبح غير مجدي في هذه المرحلة .

ونخلص في الأخير أن الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر الجزائري ،لعبت دورا بارزا واستراتيجيا في مواجهة أعتى القوات الاستعمارية من جهة وكانت درسا تاريخيا لنا في عبقرية الأمير بتسيير دولة حديثة من خلال عاصمة متنقلة ،ولكن الظروف الداخلية والدولية لم تكن في صالحه ،لاستمرار المقاومة وتثبيت أركان هذه الدولة الحديثة.

الهوامش

1- شارلز هنري تشرشل ، تر ، أبو القاسم سعد الله ، ؛حياة الأمير عبد القادر ،عالم المعرفة الجزائرية ، الجزائر طبعة خاصة ، 2009صص 255 -256

2- مُحَمَّد ابن الامير عبد القادر ،تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر ،ج 1 ، المطبعة التجارية ، الاسكندرية ، مصر ، 1903 صص99 - 103

3-Service Historique de la Défense (S H D), Vincennes Série M , Boite N° 1M/881, Renseignements sur la Famille D'Abd El Kader fournis par Daumas du 06 juin 1843

4-مُحَمَّد ابن الأمير ، مصدر سابق صص199-201

5-هنري تشرشل ، مصدر سابق 257

6- تشرشل هنري ، مصدر سابق ص 250 ، قارن مُحَمَّد ابن الأمير عبد القادر ، مصدر سابق ص 258-259

7- تشرشل ، مصدر سابق ص 256

8- نفسه ، ص 256

9- مُحَمَّد ابن الأمير ،مصدر سابق ص 267

10 - حمام مُحَمَّد :" الجغرافيا الاقتصادية لطاقين عاصمة ألأمير عبد القادر "موقع ألكتروني الدخول يوم 24-11-2016

11 - نفسه

12 - SDH N° Série 1M/881 op cit - Anonyme le document sur la Prise de la z'mahla 16 Mai 1843 sans édition ; bibliothèque d-Aix en Provence , France N° B 4908

13- SDH N° Série 1M/881 op cit

14- ibid

15 - تشرشل ، مصدر سابق صص 256-257 ، و مُحَمَّد ابن الأمير ،ص 267

16 - تشرشل ، مصدر سابق ص 256 ، مُحَمَّد ابن الأمير مصدر سابق ص 267

17 - SDH , Vincennes B N° 1M/881 Rapport du daumas 06 –Juin 1843

18- تشرشل ، مصدر سابق صص 256-257

19 - مُحَمَّد ابن الأامير عبد القادر ص 267

20- حمام مُحَمَّد :" الجغرافيا الاقتصادية لطاقين عاصمة ألأمير عبد القادر ، مرجع سابق

21 - Anonyme ,Prise de la Smahla 16 Mai 1843 sans edition , op cit

22 - هنري تشرشل ، مصدر سابق ، ص 278

23- نفسه ونفس الصفحة

24 - محمد ابن الأمير عبد القادر ،عن موقعة طاكين ، مصدر اسبق ، ص 279

25- Anonyme ,Prise de la Smahla 16 Mai 1843 sans edition , op cit , Cf : SDH . B ,N° 1M /881 D 2 Juin 1843

26- هنري تشرشل ، مصدر سابق ص273

27- نفسه ونفس الصفحة

28- محمد ابن الأمير عبد القادر ،عن موقعة طاكين ، مصدر سابق ، ص 279

29 - هنري تشرشل ، مصدر سابق ص 275 و:

Document Anonyme ,Prise de la Smahla 16 Mai 1843 sans edition , op cit

30-ibid

31- محمد ابن الأمير عبد القادر ، مصدر سابق ص 179

32 - محمد حمام :" القصة الكاملة لسقوط الزمالة "موقع إلكتروني ، الدخول يوم 24-11-2016

33 - Anonyme ,Prise de la Smahla 16 Mai 1843 sans édition , op cit p 7

34-ibid p 9

35- ibid

36- محمد ابن الأمير ، مصدر سابق وهنري تشرشل ، مصدر سابق و أرشيف فانسان السلسلة أش مصدر سابق

37 - هنري تشرشل ، مصدر سابق صص 275-27

38 - محمد ابن الأمير ، مصدر سابق ص 280

39 - Anonyme ,Rapport sur la Prise du Smahla op cit

قارن محمد ابن الأمير ص280 وورد ايضا ذلك في بعض المراجع العامة منها :

- عثمان سعدي ، الجزائر في التاريخ دار الأمة تدعيم وزارة الثقافة في الجزائر طبعة 2013 ص ص 537-539

40- تشرشل ، مصدر سابق ص 276

41- Anonyme, Rapport sur la Prise du Smahla op cit

42- ينظر التقرير الهام الذي كتبه الدوق دومال بتاريخ 20 ماي 1843 بعد أربع أيام من سقوط الزمالة :

Rapport sur la Prise du Smahla op cit

43 - هنري تشرشل ، مصدر سابق ص280

44- محمد ابن الأمير ، مصدر سابق ، تحدث عن المعارك و الوقائع الت يحدثت بين زمالته و الجيوش الفرنسية ، صص 281-286

45 - ينظر وثائق الأرشيف الفرنسي المخزنة بالأرشيف التاريخي بقصر فانسان وهي على شكل تقارير مخطوطة لضباط فرنسيين :

- SDH 1M/881 op cit

46 - تشرشل ، مصدر سابق صص 288-289

47- أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900 ، ج 1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1992- ص ص291-292

قائمة الببليوغرافيا

أ — المصادر

1 - باللغة العربية

- ابن الامير (محمد)عبد القادر ،تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر ،ج 1 ، المطبعة التجارية ، الاسكندرية ، مصر ،1903

- هنري تشرشل شارلز)، تر ، أبو القاسم سعد الله ، ؛حياة الأمير عبد القادر ،عالم المعرفة الجزائرية ، الجزائر طبعة خاصة ، 2009

2- باللغة الأجنبية

- Document Anonyme, le document sur la Prise de la z'mahla 16 Mai 1843 sans édition ; bibliothèque d-Aix en Provence , France N° B 4908

-Service Historique de la Défense (S H D), Vincennes Série M , Boite N° 1M/881, Renseignements sur la Famille D'Abd El Kader fournis par Daumas du 06 juin 1843

المراجع

- حمام مُحَمَّد :" القصة الكاملة لسقوط الزمالة "موقع إلكتروني ، الدخول يوم 24-11-2016

- حمام مُحَمَّد :" الجغرافيا الاقتصادية لطاقين عاصمة ألأمير عبد القادر "موقع ألكتروني الدخول يوم 24-11-2016

- سعد الله أبو القاسم ، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900 ، ج 1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1992

- سعدي عثمان ، الجزائر في التاريخ دار الأمة تدعيم وزارة الثقافة في الجزائر طبعة 2013